٣٨ سند بن عنان
شارح فقه مالك فى ثلاثين مجلدًا

التلمذة الفكرية فى ثقافتنا العربية الإسلامية لها تقدير لم يتوفر لأى من الثقافات الأخرى، فكلنا نعرف كيف تتلمذ الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ على الرسول ﷺ واتبعوه واهتدوا بهديه، وصدعوا لتعاليمه بشكل جعل التابعين لهؤلاء الصحابة يقتدون بالسنة الشريفة، ويصدقون بما قاله هؤلاء الصحابة. ونفس الأمر نجده عند تابعى التابعين. يحترمون ويتبعون من سبقهم من التابعين، ويقدرون مايصدر عنهم من أقوال وأفعال، على اعتبار أنهم تتلمذوا على الصحابة الأجلاء. وهكذا نجد اللاحقين يتبعون السابقين، مما يؤكد بصورة أو بأخرى كيف أن الثقافة العربية الإسلامية حلقه متصله تعنى أشد ما تعنى بالتلمذة الفكرية، على اعتبار أن نتاج هذه التلمذة هم حملة مشاعلها، ورواد تنويرها، والمسئولون عنها فى مستقبل السنين.

ولعل هذه السمة التى تميزت بها الثقافة الإسلامية فى عصرها الذهبى لم تند عن ذاكرة الأساتذة من جيل الرواد فى الثقافة العربية الحديثة، فنراهم يعتنون بمن لحقهم من الأجيال، ويسلكون فى ذلك مسلكاً علمياً متحضراً، فنجد أحدهم وهو الشيخ أمين الخولى يعتبر التلميذ ينبغى أن يكون أفضل من أستاذه. فلا خير فى أستاذ لا يعد تلميذه ليكون أفضل منه. وحجته فى ذلك أن التلميذ يساوى تجربة أستاذه وعلمه، مضافاً إليها ما يحققه بعد ذلك من علوم ومعارف جديدة بشكل ربما لا يتوفر لأستاذه بحكم التطور والزمن. ولعل الشيخ أمين الخولى أجمل ذلك فيما يشبه المعادلة الرياضية، حيث قال: إن (ت) أى التلميذ تساوى (أ) أى الأستاذ مضافا إليها (ز) أى الزمن، فتصبح المعادلة ت = أ + ز وهو دليل جديد على تقدير التلمذة الفكرية فى ثقافتنا العربية الإسلامية.

وعند تأمل ملامح شخصية الشيخ سند بن عنان يمكن التعرف على معنى هذه التلمذة الفكرية فى الثقافة الإسلامية فى عصرها الوسيط، فقد كان سند بن عنان أنبغ تلاميذ الشيخ أبى بكر الطرطوشى وأقربهم إلى نفسه، وكان كأستاذه مالكى المذهب، وقد سمع منه، ولازم حلقته سنين طويلة، ولم يأخذ عن أستاذه العلم وحده، بل أخذ عنه قبساً من أخلاقه وفضله أيضاً، وخاصة فلسفة الزهد التى أخذ بها الطرطوشى نفسه، ولهذا وصفه ابن فرحون بقوله: «كان من زهاد العلماء، وكبار الصالحين، فقيهاً فاضلاً، تفقه على الشيخ أبى بكر الطرطوشى...».

وقد بلغ من صلاح وتقوى سند بن عنان أن هناك كثيراً من الروايات تحكى عن كراماته، ولعلنا ننقل واحدة منها كان قد سجلها ـ بعد تحقيق ـ الدكتور جمال الدين الشيال فى كتابه «أعلام الإسكندرية»، حيث يذكر: «قال تميم بن معين البادسى ـ وكان من الفقهاء: رأيت رسول الله ﷺ فى المنام، فقلت: يا رسول الله اكتب لى براءة من النار. فقال لى: امضِ إلى الفقيه «سند» يكتب لك براءة. فقلت: ما يفعل فقال: قل له بأمارة كذا وكذا». فانتبهت، ومضيت إلى الفقيه سند فقلت له: اكتب لى براءة من النار. فبكى وقال: ومن يكتب لى براءة من النار؟ فقلت له الأمارة. فكتب الرقعة».

هذه الرواية المحققة من المؤرخ الدكتور جمال الدين الشيال على ما فيها من مبالغة إلا أنها تحمل دلالات على تقوى وصلاح هذا الرجل الصالح، وإلاَّ فما معنى أن يسجل مؤرخنا الدكتور الشيال ما يؤكد هذه الرواية قال: وقال ابن فرحون بعد رواية هذه القصة: «ولما أدركت تميماً الوفاةُ أوصى أن تجعل الرقعة فى حلقه وتدفن معه».

وروى الفقيه أبو القاسم بن مخلوف بن جاره: أخبرنى من أثق به أنه رأى الفقيه سند بن عنان فى نومه فى شكل مطمئن وعزيز.

ويبدو أن سند بن عنان كان قد بلغ من العلم والفضل حدًا جعل فقيه مصر فى القرن السابع الهجرى (وهو تقى الدين بن دقيق العيد) يصفه بقوله: «كان ـ أى سند بن عنان ـ فاضلا من أهل العلم والنظر..».

وإلى جانب علمه وفضله فى الفقه والتفسير والجوانب الدينية الأخرى، فقد تميز بصفة أخرى، هى محبته للأدب شعرًا ونثرًا، فقد كان كأستاذه الطرطوشى، يقول الشعر أحياناً، وقد روى ابن فرحون قصيدة له منها:

وزائرة للشيب حلت بمفرقى فبادرتها بالنتف خوفاً من الحتف

فقالت:

على ضعفى استطلت ووحدتى رويدك للجيش الذى جاء من خلفى

ولهذا لم يكن غريباً أن يشتغل سند بن عنان بالتأليف وأن ينتج فى ذلك ما تذكره المراجع بالخير. وفى مقدمة ما ألف كتابه الضخم المعروف «بالمدونة»، وهو من أمهات الكتب فى شرح فقه الإمام مالك. وقد سمى هذا الشرح «الطراز» وكان فى ثلاثين مجلداً.

وعاش سند بن عنان حياته بين التفقه فى الدين والتأليف فيه وكتابة الأدب.. حتى رشحته كل هذه المؤهلات كى يخلف أستاذه الطرطوشى فيجلس فى حلقته ومدرسته، ويلقى دروسه، وقد قال ابن فرحون فى ذلك: «وجلس ـ سند بن عنان ـ لإلقاء الدرس بعد الشيخ أبى بكر الطرطوشى، وانتفع الناس به..».

وقد ظل سند بن عنان يدرس لطلابه واحداً وعشرين عاماً بعد وفاة أستاذه الطرطوشى إلى أن توفى عام ٥٤١ هـ. ودُفن بالقرب من قبر أستاذه الطرطوشى بمسجد سُمى باسمه لا يزال موجودا حتى الآن فى شارع الباب الأخضر بالإسكندرية.

* * *